



الأوقاف الإسلامية في بيت

المقدس وعموم فلسطين

لمحة عن تاريخها ودورها الحضاري

د. عيسى صوفان القدومي

رئيس مجلس إدارة جمعية الدراسات والتنمية الوقفية

مستشار في التنمية الوقفية ومدرّب وباحث في القطاع الثالث

- أول بقعة وقفية في مدينة القدس وفلسطين هي البقعة التي جعلها الله تبارك وتعالى مكاناً للمسجد الأقصى، وتُعدّ ثاني بقعة وقفية في الأرض بعد المسجد الحرام.



أقرت لجنة البراق
الدولية وحائط البراق
بأن حائط البراق جزء
من المسجد الأقصى
المبارك، وهو وقف
إسلامي لا يجوز تغيير
معامله.

كانت فلسطين منذ فتحها الإسلامي محط أنظار المسلمين، ومحلاً يتحرّونه لأعمالهم الصالحة، وقد جاءت خصوصيتها الشرعية من ثلاثة وجوه:

الأول: وجود المسجد الأقصى المبارك فيها، وهو قبلة المسلمين الأولى، وثالث المساجد المعظمة عند عموم المسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: «... ولا تُشدُّ الرِّحال، إلَّا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي»^(١).

الثاني: دخولها في عموم مسمّى بلاد الشام، فدخلت بذلك ضمناً في كلّ النصوص التي وردت في فضل الشام، وهي نصوص كثيرة مشهورة.

الثالث: أنّها ثغرٌ، حظيت باهتمام كثير من أهل العلم، والذين فتح الله لهم في عبادة الجهاد في سبيل الله، فاختروها دار إقامة ومقرّ رباط، وقد رُوي في الحديث: «... وإنَّ أفضل جهادكم الرِّباط، وإنَّ أفضل رباطكم عسقلان»^(٢).

هذه الخصوصية الشرعية لفلسطين - لا سيما الأولى منها، وهي اشتغال الجغرافيا الفلسطينية على مدينة القدس والمسجد الأقصى المبارك - جعلها أيضاً مقصودةً بالكثير من الأعمال الصالحة التي تحتلّ تحريّ الفضل المكاني، ومن أهمّها: الأوقاف الخيرية.

لقد تنوّعت الأوقاف المقدسية تنوعاً كبيراً جداً حتى شملت كلّ وجوه الوقف الخيريّ الممكنة تقريباً، كما تنوّعت تنوعاً كبيراً أيضاً على مستوى الواقفين، من العامة والعلماء والخلفاء والأمراء والسلاطين، وقادة العسكر، ورجال السياسة.



أَوَّل وقف في بيت المقدس

أول بقعة وقفية في مدينة القدس وفلسطين هي البقعة التي جعلها الله تبارك وتعالى مكاناً للمسجد الأقصى، وتُعدُّ ثاني بقعة وقفية في الأرض بعد المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى قدسيته قديمة؛ فهو ثاني المساجد وضعاً في الأرض بعد المسجد الحرام، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أيُّ مسجد وُضع في الأرض أولاً ؟ قال : «المسجد الحرام». قال : قلت : ثم أي ؟ قال : «المسجد الأقصى». قلتُ : كم كان بينهما ؟ قال : «أربعون سنة»، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه»^(٣).

أَوَّل الأوقاف المقدسيّة في الإسلام

لم نقف على نصٍّ مؤكّد حول أوّل وقفٍ أحدثه المسلمون في مدينة القدس، لكن من أقدم ما تمّ رصدُه، وقف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه لـ (عين سلوان) على فقراء البلد وضعفته^(٤)، وهي عينٌ قديمةٌ تعلّقت بها رواياتٌ تلموديّةٌ وإنجيليّةٌ، وصفها الرّحالةُ والمؤرّخون، كما نقلوا ما كان يُحكى عنها من أنّ المسيح عليه السّلام كان يُبرئ الأكمه من مائها، إلى غير ذلك ممّا لا سبيل إلى ثبوته، والله أعلم.

جهات الوقف المقدسي

يمكنُ أن نُقسّم الدّور التّنمويّ للأوقاف المقدسيّة على أساس تغطيتها لخمسة نواحٍ مهمّة في الحياة الاجتماعيّة، والمقصودُ بالتقسيم هو استحداثُ اصطلاح ييسّر تصوّر المشهد التّاريخيّ فقط، فهو تقسيمٌ باعتبار المقصد الأصليّ للواقف، لأنّه كثيراً ما تتعدّد وجوه الوقف الواحد، فيكون على أكثر من جهة، أو يكون على جهةٍ أصليّةٍ ثمّ

سبل حماية الأصول الوقفية

تنوعت الأوقاف
المقدسية تنوعاً كبيراً
جداً حتى شملت كلَّ
وجوه الوقف الخيري
الممكنة تقريباً،
كما تنوعت تنوعاً
كبيراً جداً أيضاً على
مستوى الواقفين.

ينصُّ الواقف على أنَّ الفائض من ريعه يكون إلى جهةٍ أخرى، وهذه النواحي هي:

الأولى: الأوقاف على التعليم:

الأمة الإسلامية أمة علم وقراءة، وعنايتها بالتعليم من أعظم مميزاتنا على الأمم الأخرى، فهي أمة انطلقت وتأسست بـ (اقرأ)، ولم تعانِ من عصور ظلام ولا حِقَبٍ تخلَّف منذ أن أخرجت للناس، كما تميَّز بأنَّ كلَّ علومها وعطاياها الحضاريِّ على مستوى المعارف المتنوعة، ظهرت ونبتت وترعرعت في ظلال العلوم الشرعيَّة، ولأجل خدمتها وتنميتها وتوسيع آفاقها البحثية.

فبمصاحبة العلوم الشرعيَّة، ازدهرت علوم اللغة كلُّها، كما ازدهر الطبُّ والفلك والفيزياء والرياضيات وعلوم الطبيعة، لذلك ظلَّ الاهتمام الأساسيُّ بالعلوم الشرعيَّة بوصفها أمَّ العلوم وأساسها الأوَّل بالنسبة إلى المسلمين، الذين لم تحجزهم هذه الحقيقة عن الانتفاع بتجارب الأمم والاستفادة منها عن طريق المخالطة المباشرة والتلمذة، أو عن طريق الترجمة، ونقل العلوم الطبيعيَّة عن لغاتها الأصلية.

وقد كان لمدينة القدس نصيبٌ عظيمٌ من الأوقاف التعليميَّة من مدارس وكتاتيب ومكتبات، متعدِّدة الوجوه والخدمات، نستعرضُ ههنا نماذج منها:

* أولاً: المدارس والكتاتيب:

* الكتاتيب:

لا نملكُ الكثير من المعلومات عن كتاتيب مدينة القدس، نعني بذلك الكتاتيب

بيت المقدس أنموذجاً



المنفردة التي وُقت لتكون كذلك، ونعني بالمنفردة: تلك الكتابات التي لم تكن ملحقةً بمدارس أو مكتبات، أو لم تكن ضمن أروقة المسجد الأقصى المبارك، والعادة أن الذي تنص عليه المصادر هو اسم الكتاب الذي عادةً ما يكون على اسم الواقف أو اسم مؤدب الصبيان فيه، وقد لا يُعرف الكثير عنها إلا من خلال الوقوف على نص الوقفية الخاصة بكل منها.

هذا على الرغم من بعض الإشارات التاريخية التي تشهد بوجودها وتكشف عن بعض أحوالها، ولو على نحوٍ مجمل، كما يشهد بذلك الأرشيف العثماني أيضاً، وقد أحصى أحد الباحثين عددًا منها.

فمنها مكتب أنشأه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ومنها آخر أنشأه الأمير سيف الدين منجك الناصري، من مماليك الملك الناصر قلاوون^(٥)، وغالب الكتابات فقد كانت ملحقةً بالمدارس، وسنذكر نماذج منها.

وقد اعتيد في الكتابات أن يكون النصيب الأكبر فيها للأيتام، بل تكون مقصورةً عليهم في كثير من الأحيان، وليس غريباً أن يُجعل فيها نصيبٌ لأبناء عموم المسلمين، لا سيما فقرائهم من غير الأيتام.

* ومن الكتابات المقدسية بالإضافة إلى ما ذكر^(٦):

* **مكتب بيرام جاويش بن مصطفى (٩٤٧هـ):**

واقفه المشرف على بناء سور القدس في عهد السلطان سليمان القانوني، ومتولّي أمر أوقاف العمارة العامرة، وهي تكيّة زوجة السلطان سليمان القانوني بالقدس القديمة المعروفة بـ (تكيّة خاصكي سلطان)، وقد كان بناءً كبيراً مشتملاً على رباطٍ ومكتب، جاء تعيين مكانه بأنه عند تقاطع (طريق الواد) و(طريق

سبل حماية الأصول الوقفية

كانت أول بقعة
وقفية في مدينة
القدس وفلسطين
هي البقعة التي
جعلها الله مكاناً
للمسجد الأقصى،
وتعدُّ ثاني بقعة
وقفية في الأرض
بعد المسجد الحرام.

النَّاطِر)، وقد وقف عليه واقفه أوقافاً كثيرةً من دُورٍ ودكاكين وقُرَى، وقد وُجدت له أوقافٌ في القدس وبيت لحم وغزّة وغيرها.

وقد أُعيدَ ترميمُ المكتب والرباط عام (١٠٥٥هـ) بعد أن كان تصدّع.

وكانت فيه دار مخصّصة لسكن المؤدّب، وقد كان الرباط إلى جانب المكتب معروفاً، حتى نزل به الرّحالة البكري الصّديقي مراراً، ورأى نظام التعليم فيه (٧).

* مكتب طورغود آغا بن محمود:

من القرن العاشر الهجري في الحقبة العثمانية أيضاً، وواقفه هو متولّي أوقاف (تكيّة خاصكي سلطان) في تلك الفترة، وقد وقّفه وجعل النّظر عليه لبعض العسكر العثمانيين، وقد عُيّن فيه قارئٌ مُتقن، وكانت نفقاته من أوقافه الكثيرة (٨).

* مكتب محمد آغا الطّواشي:

من الحقبة المملوكيّة في عهد السلطان قايتباي، وقفَ عليه واقفه أوقافاً نقديةً، وفرنين في سوق الطّبّاخين، ودار في حارة باب حطّة، وحاكورتين، وقطعة أرض بالقدس (٩).

* مكتب شرف الدين أبو القاسم الهكّاري:

من أوقاف القرن السابع، في الحقبة المملوكيّة المبكّرة، في سلطنة ركن الدّين بيبرس البندقداري، وواقفه من أهل العلم، وقد تشارك أبناؤه في إنشائه، ووقفوا أوقافاً كثيرةً على مصالحه، وكان ملحقاً بدار حديث وبناله حظٌّ

بيت المقدس أنموذجاً



من أوقافها أيضاً، وقد بُورك فيه، فاستمرَّ يؤدِّي عمله إلى القرن الثاني عشر الهجري، فقد احتفظت سجلات المحكمة الشرعيَّة بالقدس بأنَّ الشيخ محمد بن عبد الصمد العلمي قد تولَّى رُبَّع وظيفة النِّظر على وقف أولاد الهكَّاري (١٠).

* المدارس:

ظهرت المدارس في القدس الشريف مع بداية ظهور نظام المدارس في العالم الإسلامي؛ فكانت في مدينة القدس وحدها مدارس تنوف على الأربعين، عمَّرت فضاء المدينة المقدَّسة في طولها وعرضها بدروس العلم ومجالس الذِّكر والوعظ، وقد تنوَّع واقفوها وتنوَّعت أغراضها، حتى وُجدت المدارس التي وقفها كبار السلاطين والأمراء والقادة، والتي وقفها من دونهم من أهل الوجاهة والمال والمكانة السياسيَّة وقادة العسكر، إلى مدارس أخرى وقفها العامَّة رجالاً ونساءً، وتتناول هنا أمثلة على كلِّ ذلك.

* فمن أمثلة أوقاف رجال الحكم والسِّياسة على التعليم:

* المدرسة الصَّلاحية:

يذكر المؤرِّخون أنَّ موضعها كان بيتاً يُنسب للسيدة (Sainte Anne) يعني القديسة حنَّة، ويوردها المؤرِّخون باسم (صندحنَّة)، وهي عند النَّصارى والدَّة السيدة مريم عليها السلام، وكانوا قد بنَّوا عليها كنيسة، ثم لما فُتحت المدينة الفتح الإسلاميَّ الأوَّل كانت قد خربت من قبل، ودارت عليها مصالح متنوِّعة بعد ذلك، منها أنَّها استُعملت لتدريس الفقه، وصارت فترةً مثل الزَّاوية أو الحَلْوَة، أقام فيها الفقيه الشافعي الكبير نصر بن إبراهيم المقدسي، وقد غادرها إلى صور سنة (٤٧١هـ)، ثمَّ لما استولى الصَّليبيُّون على المدينة عام (٤٩٢هـ) أعادوها كنيسةً.

سبل حماية الأصول الوقفية

لم نقف على نص
مؤكد حول أول وقف
أحدثه المسلمون في
مدينة القدس، لكن
من أقدم ما تم رصده،
وقف أمير المؤمنين
عثمان بن عفان رضي
الله عنه - (عين
سلوان) على فقراء
البلد وضعفته

وقيل: إنَّ المكان نفسه كان قد استُعمل قبل الفقيه
نصر بن إبراهيم المقدسي من قِبَل العبيديين لتدريس
مذهبهم الرديء أيضاً.

فلما جاء الفتح الصلاحي للمدينة عام (٥٨٣هـ)
للمدينة المقدسة، استأمر الفقهاء واستشار من حوله
فيما يفعله فيها، فاستقرَّ رأيه على أن يجعلها وقفاً على
الفقهاء الشافعيَّة، وقد عُرِفَت عنه عنايته الفائقة
بمذهب الشافعيِّ رحمه الله، وكأنَّ تلك الخطوة بوقفها
أريدَ لها أن تكون تأييداً لهويَّتها الإسلاميَّة بعد تقلُّبها بين
أيدي كثيرة، وعُرِفَت منذ ذلك الوقت بـ (الصَّلاحية).

وقد ذكر العليمي أنَّه اشتراها أولاً من وكيل بيت المال من حرِّ ماله، ثمَّ وقفها
على الوجه المذكور، رحمه الله وتقبَّل منه، وجعل عليها أوقافاً كثيرة (١١).

تقع المدرسة الصلاحية قُرب باب الأسباط كما أشار العليمي، على مسافة قريبة
جداً منه (١٢).

* المدرسة التَّنْكِزِيَّة:

وقفها الأمير تَنَكَّز بن عبد الله النَّاصري، نائب السلطنة بدمشق في السلطنة
الأخيرة للسلطان النَّاصر قلاوون، وقد كان وقفها كما يشير حجر التَّاريخ على
بابها سنة (٧٢٩هـ).

كانت المدرسة التَّنْكِزِيَّة منذ إنشائها مجمَّعاً وقفياً كبيراً، يحتوي على مدرسة
بها أربعة أواوين، أحدها مسجد، وبها مطبخ لمن يرتَّب فيها من الفقهاء
والدارسين، ومستحمٌّ، والماء يجري إليها من قناة رومانية قديمة تجري إلى

بيت المقدس أنموذجاً



القدس من منطقة (العُروب)، كان الواقف قد جدّدها أيضاً، وبها رباط للنساء، ورباطٌ للصوفيّة، ومكتبٌ للأيتام، ووقفٌ عليها أوقافاً كثيرةً.

درّس في التنكزيّة أعلامٌ كبار، على رأسهم صلاح الدّين العلائي، الإمام المعروف الذي سارت بمصنّفاته الرُّكبان، ومنهم أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال، مصنّف: «مثير العَرام بفضائل القدس والشّام» وغيرهم.

وقد استُخدمت المدرسة التنكزيّة في القرون المتأخّرة لعقد مجالس القضاء، ثمّ صارت مقرّاً للمحكمة الشرعيّة، ولاحقاً مقرّاً للمجلس الإسلاميّ الأعلى، وسكنها مدّة رئيسه الحاج أمين الحسيني رحمه الله، إلى أن استولت عليها قوّة الاحتلال الصهيونيّ التي هدمت حارة المغاربة المجاورة لها، وحوّلت مبنى المدرسة إلى مركزٍ توقيفٍ مؤقتٍ للمرابطين والمرابطات في المسجد الأقصى المبارك، وذلك منذ عام ١٩٦٩م.

وقد تشرّفت جمعيّة الدراسات الوقفيّة بإنجاز تحقيق للنصّ الكامل لحجّة وقفها، تضمّنت الكثير من تفاصيلها وأوصافها الدّقيقة، والأوقاف التي وُقفت عليها، وقد طُبعت ضمن إصدارات الجمعية، والحمد لله (١٣).

*** ومن أمثلة أوقافِ النّساء على التّعليم:**

*** المدرسة العُثمانيّة:**

قال العُلّيمي: «باب المتوصّأ، واقفتُها امرأةٌ من أكابر الرُّوم اسمُها أصفهان شاه خاتون، وتدعى خاتم، وعليها أوقافٌ ببلاد الرُّوم وغيرها في هذه البلاد، وعلى بابها تاريخها في سنة أربعين وثمانمائة (٨٤٠هـ)، ودُفنت الواقفة لها بالترّبة المجاورة

درّس في التنكزية
أعلام كبار، على
رأسهم صلاح الدّين
العلائي، الإمام
المعروف صاحب
المصنفات، و أحمد
بن محمد بن إبراهيم
بن هلال، مصنف:
«مثير الغرام بفضائل
القدس والشام»
وغيرهم.

لسور المسجد الأقصى الشريف رحمها الله تعالى» (١٤).

كانت مدرسة ذات شأن كبير، تعاقب على مشيختها جماعة من أعيان الحنفيّة، وكانت تُعقد بعض مجالس القضاء والرقابة والتحقيق مع القضاة أحياناً.

وقد كان من شرط هذه المدرسة أن يلي مشيختها أعلم أهل زمانه (!)، وقد نزل عنها أحد أجلّ علماء وقته من أجّل هذا الشرط، تواضعاً منه وتصريحاً بأنّ الشرط لا ينطبق عليه.

قال العليمي: «الشيخ الإمام العالم العامل الصّالح سراج الدّين، سراج بن مسافر بن زكريا ابن يحيى بن إسلام بن يوسف، الرّومي الحنفي، عالم الحنفيّة بالقدس الشّريف، وسراج هو نفس اسمه، ويُسمّى

أيضاً: (عوض) و(ضياء)، ولم يشتهر إلّا بالشيخ سراج بالرّوم وبهذه البلاد.

مولده في سنة خمس وتسعين وسبعائة، وقدم إلى القدس في سنة ثمان وعشرين وثمانائة، وأقرأ النّاس العلوم العقليّة والتّفسير، وكان من أهل العلم والدّين والورع والصّلاح، وليّ مشيخة المدرسة العثمانيّة بالقدس الشّريف، ثمّ صرّف عنها باختياره لاطّلاعه على شرط الواقفة أن يكون الشيخ أعلم [أهل] زمانه! فقال: لست أنا بهذه الصّفة، فتنزّه عنها، كذا أُخبرت، وهذا دليل على كمال دينه وورعه» (١٥).

وشرط واقفة هذه المدرسة مع غرابته وندرته، يدلّ على أن النّاس كانوا يعبرون عن آمالهم القصوى في الإصلاح والإسهام في الفعل الحضاريّ للأمة الإسلاميّة، بالإضافة إلى الغرض الدّينيّ في الثّواب والأجر، عن طريق

بيت المقدس أنموذجاً



الأوقاف؛ فأَيُّ حَبٍّ لِّلَّهِ ورسولِهِ واحتياطٍ لدينِهِ قصدته هذه الواقفةُ عندما اشترطت هذا الشرط؟ فسبحان الله! ومنها:

* المدرسة الخاتونية:

قال العليمي عنها: «باب الحديد، واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين تمر القازانية البغدادية، وقفت عليها المزرعة المعروفة بظهر الجمل، واشتهرت في عصرنا وقبله بـ (باطن جمل)، وقيدت تاريخ وقف الجهة المذكورة في خامس ربيع الآخر سنة ٧٥٥ هـ، ثم أكملت عمارة المدرسة المذكورة، ووقفت عليها المرحومة أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه، تاريخ وقفها في العشر الآخر من جمادى الآخرة سنة ٧٨٢ هـ» (١٦).

بناء هذه المدرسة ما زال موجوداً، وهي تتكوّن من طابقين، وصحن مكشوف، وإحدى خلاويها مطلّة على المسجد الأقصى المبارك، وقد قُبر في هذه الخلوة بعض أعيان القدس، منهم الشهيد المجاهد عبد القادر الحسيني رحمه الله (١٧).

* ومن أمثلة أوقاف العامّة على التعليم أيضاً:

* المدرسة الكامليّة:

قال العليمي: «المدرسة الكامليّة بخطّ باب حِطّة، بجوار الكريمة من جهة الشمال، واقفها الحاجّ كامل من أهل طرابلس، ولم يوجد لها كتاب وقف، فكُتب محضّر بوقفها مؤرّخ في شهور سنة ست عشرة وثمانائة (٨١٦ هـ)» (١٨).

* ومن المدارس التي وقفت على علم خاصّ:

* المدرسة النحويّة:

وقفها الملك المعظم عيسى بن محمد الملك العادل بن أيّوب، شرف الدين، وهي

كانت القدس تزخر
بالمكتبات الخاصة
والعامة على مرّ
تاريخها الإسلامي،
فهي رحلة العلماء
وطلاب العلم
والمرابطين، وكان
المسجد الأقصى
عامراً بحلقات
العلم الشرعيّ
بكافة فروعها.

من المدارس التي كانت بداخل السور في ساحة قبة الصخرة على ما يظهر، قال العليمي في وصف موقعها: «على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب... وكان بناؤها في سنة أربع وستائة» (١٩).

وقال في ترجمة الواقف: «وبنى على آخر صحن الصخرة من جهة القبلة مكاناً يُسمّى (النحويّة) للاشتغال بعلم العربية، ووقف على ذلك أوقافاً حسنة» (٢٠).

وهذا من الأوقاف التعليميّة التي تتميز بغرض نادر من جهة تخصيصها لعلم العربيّة وحده، وربّما لا توجد لمثل هذه المدرسة الوقفيّة التي خُصّ بها المسجد الأقصى أمثلة كثيرة في أوقاف العالم الإسلاميّ، وقد كان أدائها العلميّ متقدّماً، فقد

ذكر محمّد كرد علي (ت ١٩٥٣م) أنّه كان يُدرّس فيها كتاب سيبويه (٢١)، وترجمة واقفها تشهد على اهتمامه بعلوم العربيّة، كما ذكر أنّها في فترة من الفترات كانت فيها دار كتب المسجد الأقصى المبارك (٢٢)، وهذا الذي ذكره حدث في وقت متأخّر، عند بداية تأسيس مكتبة المسجد الأقصى بشكلها الحالي برعاية المجلس الإسلاميّ الأعلى عام ١٩٢٢م (٢٣).

وقد اتّضح أنّها آلت في نهاية الأمر إلى أن تُستخدم مكتباً هندسياً دائماً للجنة إعمار المسجد الأقصى المبارك، وقد وصف بعض المعاصرين بناءها بأنّه «من غرفتين وصالة تعلوه قبة، ويقع طرف الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب، يحمل بناء القبة كتابة ذكرها (فان برشيم) تشير إلى بناء القبة من قبل الملك المعظم عيسى في التاريخ المذكور... على يد الأمير حسام قਿਆز والي بيت المقدس» (٢٤).

بيت المقدس أنموذجاً



هذه النماذج من المدارس المقدسية، وغيرها بالعشرات مما لم يذكر، خرّجت آلاف التلاميذ والمصنّفات، وأشرقت بنور القرآن والسنة، وما من فقيه أو محدّث أو قاضٍ إلّا مرّ عليها قارئاً أو مقرّئاً، سامعاً أو مُسمِعاً، وما من رحالةٍ إلّا حطّ رحله في بعضها، فقد كانت أحد أهمّ الأجزاء التي تؤلّف فضاء مدينة القدس الإسلاميّ.

* ثانياً: المكتبات:

كانت القدس تزخر بالمكتبات الخاصّة والعامة على مرّ تاريخها الإسلاميّ، فهي رحلة العلماء وطلاب العلم والمرايطين، وكان المسجد الأقصى عامراً بحلقات العلم الشرعيّ بكافة فروعها، فلا غرابة بعد ذلك في انتشار المكتبات في بيوت المدينة.

أمّا المكتبات العامة، فأشهرها على الإطلاق، مكتبة المسجد الأقصى المبارك، ومكتبة قبة الصخرة، وقد وقفت على المسجد الأقصى كتبٌ ومصاحفٌ لا تُحصى من كلّ شرائح المجتمع بدءاً من السلاطين المماليك والعثمانيّين خاصّة، بل أرسل السلطان أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف المريني أحد سلاطين المغرب مصحفاً كتبه بخطّ يده! وجعله لمكتبة المسجد الأقصى، وكذلك المصاحف التي أرسلها السلاطين: برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف أينال، والظاهر خشقدم، من المماليك، والسلطان سليمان القانوني من العثمانيّين.

وما سوى هاتين المكتبتين من المكتبات العامة فهي مكتبات المدارس التي زحرت بها القدس، فلم تخل مدرسةٌ من دارٍ للكتب أو خزانة كتب، وقد كانت مكتبة المدرسة الفخرية من أغنى المكتبات بالكتب الشرعيّة وكتب الفنون الأخرى (٢٥).

* الثانية: الأوقاف على الصّحة العامّة:

في القدس
أسبلة ماء كثيرة
من عدّة حقب،
أهمها المملوكيّة،
والعثمانيّة، وربما
لعبت أسبلة القدس
والمسجد الأقصى
دوراً أكثر أهمية منها
لو كانت في مكان
آخر بسبب شح الماء
في القدس.

المقصود بالأوقاف على الصّحة العامّة أعمّ من
المستشفيات، فإنّ الصّحة العامّة ترتبط بالنّظافة
العامّة وجودة الطّعام ونقاوة الشّراب، فيدخل في
ذلك الأسبلة والأحواض والصّهاريج والحمامات،
بالإضافات إلى المستشفيات ودور الصيادلة
والمدارس الطّبيّة الملحقه بالمستشفيات، ووقف
كتب الطّبّ، ونحو ذلك.

* ومن أشهر ما ذكر في القدس من الأوقاف على
الصّحة العامّة:

* أولاً: البيمارستان الصّلاحي:

أنشئَ هذا البيمارستان من عصر العبيديّين الفاطميّين، فقد مرّ الرّحالة أبو
معين الدّين ناصر خسرو المروزي من القدس أثناء حكمهم لها، وذكر أنّ
بها «مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج
والدّواء، وبه أطباء يأخذون مرتّباتهم من الوقف المقرّر لهذه المستشفى» (٢٦).

لكن لما أنعم الله بالفتح الصّلاحي لمدينة القدس بعد احتلال الصليبيين، كان
هذا البيمارستان قد تهدّم جزء كبير منه، فأعاد صلاح الدّين عمارته وبناءه في
(٥٨٣هـ)، وهياً له ما يكفي من الأطباء والأدوية والعلاجات، وعُرف منذ
ذلك الوقت بالبيمارستان الصّلاحي، ووقف عليه أوقافاً كثيرة.

كان يقع في خطّ الدّركاه الذي يلي سوق العطّارين بحسب وصف العليمي (٢٧)،
وما زال سوق العطّارين معروفاً في القدس العتيقة إلى اليوم.

بيت المقدس أنموذجاً



وتذكر بعض المصادر أنَّ هذا الـبيمارستان تهدَّم معظمه للأسف في زلزال وقع سنة (٨٦٣هـ)، وكان شديداً، فاخفت آثار المستشفى تقريباً، وتمَّ التَّصَرُّف في أرضه في وجوه كثيرة بعد ذلك، وهذا ليس دقيقاً، إذ ذكرت مصادر أخرى أنَّه أُعيدَ ترميمه بل تطويره بشكل ملحوظ في الحقبة العثمانية، وبالتحديد عام (٩٧٨هـ)، وصار رئيس الأطباء فيه يُعيَّن بفرمانٍ سلطانيٍّ، نظراً لأهميَّة المكان وحساسيَّة المنصب ورمزيَّته (٢٨).

أمَّا في السَّنوات فيما بين تجديده وتجديد أوقافه على يد صلاح الدِّين الأيوبيِّ، وبين انهدامه في الزَّلزال، فقد عمل أعمالاً جليلاً وقَدَّم خدماتٍ عظيمةً، يظهر أنَّها تجاوزت بكثير حدود مدينة القدس المعروفة اليوم، مع أنَّ عدد سكَّانها في القرن الخامس الهجري، أي: قبل إعادة تجديده بأكثر من ١٠٠ عام كانوا نحو عشرين ألفاً (٢٩).

ولذلك تتابع العامَّة والأمراء والوجهاء على توسعة الأوقافِ على هذا المستشفى، فوُجدت عليه أوقافٌ من نساء في منطقة (بني زيد)، وهي تقع إلى الشمال الشرقيِّ من مدينة رام الله اليوم، وأوقافٌ أخرى في القدس نفسها من الدَّكاكين والدُّور والخوانيت عليه وعلى إدارته ونفقات تشغيله، أو لأجل التوسعة على المرضى النَّازِلين فيه (٣٠).

والظَّاهر أنَّ المنشآت الوقفيَّة الصَّحيَّة لم تتعدَّد في القدس في تلك الحقبة لسبب معقول، وهو أنَّ الـبيمارستان الصَّلاحي كان يفي بحاجة أهل المدينة وزوَّارها، أمَّا حواضر فلسطين الأخرى فقد كانت جميعاً فيها مستشفياتها، فقد وُجد مستشفى آخر في نابلس، وآخر في عكا وُقِفَهِ صلاح الدِّين نفسه بعد مسيره من القدس إلى دمشق بعد تجديده للبيمارستان الصَّلاحي، ومستشفى آخر في صفد كان ذائع

الصَّيِّت، إلى غير ذلك.

* و يتركز الدور الحضاري للبيمارستانات الوقفية
عموماً في:

(١) مجَّانيَّة العلاج لجميع أطراف المجتمع.

(٢) مجَّانيَّة القيام على شأن الموتى بالتغسيل والتكفين، وقد نصَّت بعض الوقفيات صراحةً على هذا الغرض، مثل وقفية الأمير حسام الدين بن بركة خان (ت ٦٦١هـ)، فقد جاء فيها أَنَّهُ وَقَفَ قرية (دير الغصون) على تجهيز الموتى بالقدس الشريف، ولم يكن بالقدس مستشفى في تلك الفترة سوى الصلاحي.

(٣) صَّام الأمان في فترات الأوبئة والجوائح.

(٤) مأوى مفتوح للفئات المهمَّشة من شديدي الفقر الذين تأذَّت صحتهم نتيجة فقر شديد، أو لذوي العاهات وأصحاب الأمراض العقلية والنفسية والمجانين؛ فكانت تخدم هؤلاء جميعاً.

* ثانياً: الحمَّامات:

مدينة القدس تُعاني من شحِّ المياه عبر تاريخها، وقد جرَّب أهلها عدَّة أساليب وطرق للحصول على إمدادات المياه، منها القنوات، ومنها اعتمادهم على الصَّهاريج، والأساليب التي تسمح لهم بالانتفاع بماء الأمطار قدر الإمكان، وقد كان إعادة تعمير (قناة العُروب) على يد نائب السلطنة تنكز الناصري حدثاً مهماً في هذا السياق.

لقد كانت الربط
والزَّوايا والخوانق
بالقدس من الكثرة
بمكان. إلى الدَّرجة
التي جعلت
كثيراً من المؤرَّخين
يُحجمون عن عدِّها
جميعاً. غير أنَّ ما
أوردناه يعدُّ نموذجاً
يسيراً لها.

بيت المقدس أنموذجاً



والمقصود أن الباحثين جعلوا صعوبة إيصال المياه إلى المدينة سبباً في قلّة الحمامات بها، لأنّ استهلاكها للمياه مرتفع، وهذا لا ينسجم مع الواقع المائيّ في المدينة.

وعلى الرّغم من كلّ ذلك فإنّ المدينة أُحصي فيها نحو ثلاثة عشر حمّاماً في العصر المملوكيّ، فالمدرسة الصّلاحية كان قد ألحق بها حمّامٌ من جملة أوقافها^(٣١)، وكذلك وقف نائب السلطنة تنكز الناصري حمّامين مُهمّين أيضاً، كان يُطلق عليهما معاً (حمّام تنكز)، أو (الحمّام الجديد)، أو (حمّام العين).

ومما يدلّ على تأثير الواقع المائي في مدينة القدس قديماً على وقف الحمامات، أنّ حمّام تنكز المشار إليه، كان ينقسم ريعه أحياناً بين المدرسة التّنكزية التي وقف عليها أصلاً وبين المسجد الأقصى المبارك، ذلك لأنّ القائمين على الحمّام كانوا يجدون كفايته أحياناً من (قناة العروب) التي كانت تسمى (قناة السّيل)، وأحياناً تشحّ فيها المياه فيلجأون إلى صهاريج المسجد الأقصى المبارك، فيصرفون إليه بعض الرّيع في مقابل ذلك^(٣٢).

وذلك كلّه مرتبطٌ بالبُعد الحضاريّ الإسلاميّ الواضح المرتبط بترية الإسلام أبناءه على النظافة والتّطيب، واتباعاً لسنةٍ قديمةٍ، فقد روي أنّ أوّل من بنى بالقدس حمّاماً من المسلمين هو الصحابيُّ عياض بن غنم الأشعري رضي الله عنه^(٣٣).

* ثالثاً: الأسبلة:

في القدس أسبلة ماء كثيرة من عدّة حقب، أهمّها كما هو الشّأن في معظم الأوقاف: المملوكيّة، والعثمانيّة، وربّما لعبت أسبلة القدس والمسجد الأقصى دوراً أكثر أهميّة منها لو كانت في مكان آخر، لما ذكرنا من شحّ الماء في القدس، ففي بناء الأسبلة ووقفها مزيدٌ نفع للمسلمين وغيرهم من رعايا الخلافة

سبل حماية الأصول الوقفية

تعاقب على
مشيخة الخانقاه
الصّلاحية شيوخ
كثير كان لهم دور بارز
في صناعة المشهد
المقدس على مرّ
القرون.

الإسلاميّة، لا سيما وقد جاء في الحديث أنّ سَقَى
الماء أفضل الصّدقة (٣٤).

* وفي القدس والمسجد الأقصى من الأسبلة:

- (١) سبيل الكأس «متوضّأ الكأس»، وقفه الملك
العادل أبو بكر بن أيّوب (٥٨٩هـ)، وهو بين بنائِي
قُبّة الصّخرة والمسجد الأقصى «المُصلّى القبلي»، وهو
معروفٌ مشهورٌ لا يزال قائماً عامراً إلى اليوم.
- (٢) صهريج الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي، وقفه في عام (٦٠٧هـ)،
ولا يزال بناؤه موجوداً إلى اليوم.
- (٣) سبيل شعلان، وهو سبيلٌ آخر من إنشاء الملك المعظم عيسى، في الجزء
الشّماليّ الغربيّ من ساحة المسجد الأقصى المبارك، بناه عام (٦١٣هـ).
- (٤) سبيل إبراهيم الرّومي، نُسِبَ إلى أحد مجدّديه وهو إبراهيم الرّومي هذا،
ولم يُعرَف واقفه على وجه التّحديد، وقد جُدّد عام (٨٣٩هـ)، لذلك يُضاف
أحياناً إلى موضعه فيقال: سبيل باب الناظر، أو سبيل باب الحبس.
- (٥) سبيل قايتباي، أنشأه السلطان الأشرف أبو النّصر قايتباي عام (٨٨٧هـ)،
في ساحة المسجد الأقصى قريباً من باب المطهرة، وهو معروفٌ قائمٌ إلى اليوم.
- (٦) سبيل قاسم باشا والي اسطنبول (٩٣٣هـ)، وسبيل بركة السلطان، وسبيل
الواد الذي بسوق القطّانين، وسبيل باب السلسلة، وسبيل باب الناظر، وسبيل
باب العتم، وسبيل باب ستّي مريم، وهذه جميعاً أنشأها السلطان سليمان
القانوني في شهور عام (٩٤٣هـ).
- (٧) سبيل العمارة العامرة (خاصكي سلطان) الذي أنشأته زوجة السلطان

بيت المقدس أنموذجاً



سليمان القانوني عام (٩٥٩هـ).

(٨) سبيل باب المغاربة الذي أسَّسه القاضي أحمد أفندي الكوتاهي قريباً من باب المغاربة، في الفترة (٩٤٨-٩٨٧هـ).

(٩) سبيل عبد الكريم الشوربجي وهو من عامّة أهل القدس، تأسَّس عام (١٠٩٧هـ).

(١٠) سبيل الخالدي الذي أسَّسه الشيخ محمّد صنع الله الخالدي على يسار طريق باب السلسلة عام (١١٢٥هـ).

(١١) سبيل الحسيني الذي أسَّسه القاضي حسن أفندي زادة الحسيني (١١٣٧هـ) في صحن قبة الصخرة بجانب المدرسة النّحويّة أو (القبة النّحويّة) التي سبق ذكرها.

(١٢) وأخيراً سبيل مصطفى آغا براونة زادة، الذي كان قائم مقام القدس (حاكم القدس) بحسب التراتبيّة العثمانيّة، ويقع في ساحة المسجد الأقصى المبارك شرقيّ باب الناظر، أسَّسه واقفه عام (١١٥٣هـ) (٣٥).

* الثالثة: الأوقاف على الخدمات الاجتماعيّة:

ما يمكن أن نُفرده باعتباره وقفاً على الخدمات الاجتماعيّة المتنوّعة هو الخوانق والرُّبُط والزّوايا، لكونها جميعاً على وجه التقريب تستقطب ذوي الحاجات من أفراد المجتمع، وأحياناً تشترط أن يكونوا على صفات خاصّة من الرّغبة في الانقطاع للعبادة والذكر كما هو الحال في الزّوايا.

* الخوانق المقدسيّة: ومنها:

(١) الخانقاه الصّلاحيّة:

سبل حماية الأصول الوقفية

تعدّ الأوقاف إحدى
الصفحات الناصعة
في سجل دولة
الإسلام الأولى في
عهد النبوة والخلفاء
الراشدين وما
بعدهم في العهود
الإسلامية، لتنتج
حضارية إسلامية،
عملت على إيجاد
واستمرار منظومة من
المؤسسات المتكاملة
في كافة الميادين

بناها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ووقفها على
الصوفيّة سنة (٥٨٥هـ)، وهي فوق كنيسة القيامة،
وقد أحدث لها بعض شيوخها المتأخرين قبل عام
(٨٢٠هـ) منارةً أيضاً^(٣٦).

وقد تعاقب على مشيخة الخانقاه الصلاحية شيوخ
كثُر كان لهم دورٌ بارزٌ في صناعة المشهد المقدسيّ
على مرّ القرون، وكان أوّل من ولي مشيختها بأمر
صلاح الدين الأيوبي نفسه: غانم بن علي بن حسين
الأنصاري المقدسي، أصله من قرية (بورين) من
أعمال نابلس، ثمّ أقام بالقدس الشريف بعد أن
عهد إليه بمشيخة الخانقاه^(٣٧)، وتناقلت له ذريّة
بالمكان، إليهم يُنسب (باب الغوانمة) من أبواب
المسجد الأقصى المبارك، ومن خلال تراجع مشايخها
وهم كثر، يتّضح أنّها كانت واسعة، ولها بوابٌ، ولها
مكتبةٌ، وبها مطبخ ومخبز، وغير ذلك من المرافق.

(٢) الخانقاه الفخريّة:

قال العليمي: «وهي مجاورةٌ لجامع المغاربة الذي تُقام فيه صلاة المالكية من جهة الغرب،
وهي بداخل سور المسجد، وبابها من داخل المسجد عند الباب الذي يُخرج منه الى
حارة المغاربة، واقفها المقرّ العالي القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله،
ناظر الجيوش الإسلامية، أصله قبضيّ فأسلم وحسّن إسلامه، وكانت له أوقاف كثيرةٌ
وبرٌّ وإحسانٌ لأهل العلم، وكان صدرًا كبيراً معظماً، توفي في منتصف رجب سنة اثنتين
وثلاثين وسبعمائة وقد جاوز السبعين، رحمه الله»^(٣٨).

بيت المقدس أنموذجاً



ذكر محمد كرد علي أنَّها في وقته كانت لا تزال عامرة (٣٩)، وفي الواقع ظلت عامرة إلى ما بعد ذلك، حتى أُبِيدَت معالمها عن آخرها مع حارة المغاربة على يد الاحتلال الصهيوني عام (١٩٦٧م).

* الأريطة (الرُّبُط) المقدسيّة:

(١) الرِّباط الزَّمني:

قال العليمي: «ببَاب المتوضَّأ، تجاه المدرسة العثمانية، واقفهُ الخواجا شمس الدين محمد بن الزَّمن، أحد خواصَّ الملك السلطان الأشرف قايتباي، وكان بناؤه في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة، وتوفي واقفهُ في سنة سبع وتسعين وثمانمائة» (٤٠).

(٢) رباط المارديني:

قال العليمي: «ببَاب حطّة مقابل الكامليّة، وهي بجوار التُّربة الأوحديّة، وقفهُ منسوبٌ لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب ماردين، وشرطهُ أن يكون لمن يردُّ من ماردين، وقد وقفتُ على محضرٍ ثابت بوقف، تاريخه في سنة ثلاث وستين وسبعمائة» (٤١).

(٣) رباط الكرد:

قال العليمي: «ببَاب الحديد، بجوار السُّور تجاه المدرسة الأرغونية، واقفهُ المقرُّ السَّيفي كرد، صاحب الدِّيار المصريّة في سنة ثلاث وتسعين وستمائة» (٤٢)، وقد ظل قائماً حتى صادرتهُ قُوّات الاحتلال الصهيوني سنة ١٩٦٧م، مع المنطقة المحيطة به، وهو إلى الشمال قليلاً من باب الحديد.

(٤) الرباط المنصوري:

لا شك أن ما قام
به صلاح الدين من
الأوقاف الكثيرة
التي أوقفها أعاد
للمدينة المباركة
الحياة. وأسهم في
رجوع المسلمين
والاستقرار في
القدس.

قال العليمي: «باب الناظر، وقف السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي» (٤٣)، ووصفه بأنه «رباط في غاية الحسن والبناء المحكم» (٤٤)، ذكر محمد كرد علي أنه استعمل في العهد التركي سجنًا، ويبدو أن ذلك كان لمدة قصيرة، ثم اختصَّ بالنزول فيه الفقراء الأفارقة (٤٥).

وقد ذكر بعض الباحثين أنه كان في سنة ١٩٢٣م مقرًا للمتحف الإسلامي في بداية تأسيسه، قبل أن ينتقل إلى موضعه المعروف اليوم (٤٦).

(٥) رباط علاء الدين البصير:

قال العليمي: «تجاه الرباط المنصوري، واقفه الأمير علاء الدين آيدغدي... في سنة ست وستين وستمائة، ولم يظهر له كتاب وقف فكُتب محضر بوقفه وثبت لدى حاكم الشرع الشريف تاريخ المحضر الثابت بوقفه يوم الخميس، ثامن عشر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة (٧٤٢هـ)، وهو مدفون بالرباط المذكور، وكان صالحًا...» (٤٧).

* الزوايا المقدسية:

(١) الزاوية الشيخونية:

قال العليمي: «عند سُويقة باب حطة، واقفها الأمير سيف الدين قطيشا بن علي بن محمد، من رجال حلقة دمشق، كان مجاورًا بالقدس الشريف، وجعل نظرًا لها

بيت المقدس أنموذجاً



لنفسه ثم من بعده لولده شيخون، فسُميت بالشيخونية نسبة لولد الواقف، تاريخ وقفها مستهل صفر سنة إحدى وستين وسبعائة» (٤٨).

(٢) زاوية المغاربة:

قال العليمي: «بأعلى حارتهم، وقف الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد، وكان رجلاً صالحاً عمّر الزاوية وأنشأها من ماله، ووقفها على الفقراء والمساكين بتاريخ ثالث شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعائة» (٤٩).

(٣) زاوية الهنود:

أو الزاوية الهندية، قال العليمي: «بظاهر باب الأسباط، وهي قديمة، وكانت للفقراء الرفاعية، ثم نزل بها طائفة الهنود فعُرفت بهم» (٥٠).

لقد كانت الرُّبُط والزوايا والخوانق بالقدس من الكثرة بمكان، إلى الدرجة التي جعلت كثيراً من المؤرخين يجمعون عن عدّها جميعاً، غير أنّ ما أوردناه يُعدّ نموذجاً يسيراً لها، ونموذجاً على ما تورد المصادر التاريخية العامة بشأنها، لأنّ تفاصيلها لا توجد إلّا في نصوص وقيّاتها أو في سجلّات المحكمة الشرعية.

* أوقاف صلاح الدّين الأيوبي في القدس:

إبداعات الناصر صلاح الدّين الأيوبي رحمه الله وروائعه حينما حرّر القدس وفلسطين من أيدي الصليبيين، وأراد أن يعيد الحياة للقدس ويهيئ مرافقها لاستقبال من شدّ الرّحال إلى المسجد الأقصى وجاوره بقصد، وإعادة الطابع الإسلامي لها، ولا شك أنّ ما قام به صلاح الدّين من الأوقاف الكثيرة التي أوقفها أعاد للمدينة المباركة الحياة، وأسهم في رجوع المسلمين والاستقرار في القدس.

*** صلاح الدين الأيوبي وإحيائه للأوقاف في القدس:**

أنشأ صلاح الدين
«كتاباً» لتعليم
القرآن الكريم مقابل
المسجد الأقصى،
ووقف عليه داراً
للإنفاق عليه؛
كما أوقف على
مصالح المسجد
الأقصى سوقاً لبيع
الخضراوات، وسوقاً
لبيع القماش.

لَمَّا تَطَهَّرَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الصُّلْبَانِ
وَالنَّوَاقِيسِ وَالرُّهْبَانِ، وَدَخَلَهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَنُودِيَ
بِالْأَذَانِ، وَقُرِئَ الْقُرْآنُ، وَوُحِّدَ الرَّحْمَنُ، وَأُقِيمَتِ أَوَّلُ
جُمُعَةٍ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنْ شَعْبَانَ، بَعْدَ يَوْمِ الْفَتْحِ بِشَنَانٍ،
فَنُصِبَ الْمَنْبَرُ إِلَى جَانِبِ الْمَحْرَابِ، وَامْتَلَأَ الْجَامِعُ،
وَسَالَتِ لَرَقَةُ الْقُلُوبِ الْمَدَامِعُ، وَلَمَّا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُونَ
لِلصَّلَاةِ قَبْلَ الزَّوَالِ كَادَتِ الْقُلُوبُ تَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ
فِي ذَلِكَ الْحَالِ، وَعُيِّنَ لِلخُطَابَةِ الْقَاضِي مُحْيِي الدِّينِ
مُحَمَّدُ بْنُ زَكِيِّ الدِّينِ عَلِيٍّ.

وَحُمِلَتِ الْمَصَاحِفُ، وَرُمِّمَتِ الْمَسَاجِدُ، وَلَكِي تَسْتَمِرَّ وَتَدْبُ الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ أَوَّلَ
مَا فَكَّرَ فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ الْأَوْقَافَ، فَحَبَسَ الْأَوْقَافَ -بَدَايَةَ- الَّتِي تُصَرَفُ عَلَى
إِمَامِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَالْعَامِلِينَ فِيهِ، ثُمَّ تَنَالَتِ الْأَوْقَافُ الَّتِي طَالَتْ كُلُّ مَا يُصْلَحُ
الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، الَّتِي سَاعَرَضُهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرَ؛ لِنَعْيِ كَيْفِ كَانَتْ وَمَا
زَالَتِ الْأَوْقَافُ تِجَارَةً رَابِحَةً فِي الدَّارَيْنِ، وَتَنْمِيَةً وَبِنَاءً لِلْاِقْتِصَادِ الْإِسْلَامِيِّ.

*** ومن المنشآت التي أقامها صلاح الدين:**

(١) الخانقاه الصَّلاحيَّة:

أُوقِفَتْ لِلزَّاهِدِينَ وَالْعَابِدِينَ إِيْوَاءٌ وَتَجْمَعاً لِمَجَالِسِهِمْ فِي ٥٨٥ هـ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا
السُّلْطَانُ طَاحُونًا وَفَرْنًا وَحَمَامًا وَحَوَانِيتَ مَجَاوِرَةً وَبِرْكَةً مَاءٍ وَقَطْعَتِي أَرْضٍ
مَجَاوِرَتَيْنِ، وَكَذَلِكَ صَهْرِيحَيْنِ، وَتَضُمُّ الْخَانِقَاهُ: مَسْجِدًا وَغُرَفًا لِلسَّكَنِ وَمُرَافِقَ



عامّة، وعَيْنٌ للوقفيّة ناظرًا.

(٢) المدرسة الصّحيّة:

أنشئت عام ٥٨٣هـ ووقفها السلطان عام ٥٨٨هـ، وخصّصت لتدريس المذهب الشّافعي، ووقف عليها الكثير من الأملاك، ومن ضمنها: سوق العطارين في القدس ووادي سلوان (جنوب شرق القدس)، وحمام في باب الأسباط، وقرية عين سلوان، وفرن في محلة باب حطة، ودور متفرقة في القدس، وبستان بئر أيوب وأراضٍ أخرى.

(٣) البيمارستان الصّلاحي:

أمر السلطان صلاح الدّين بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاستبار بيمارستاناً للمرضى - أي: مستشفى - ووقف عليه مواضع وزوّده بالأدوية والعقاقير؛ حيث كان علم الطّب يُدرس فيه إلى جانب ممارسته عملياً، وأوقفت ٤٠ بيتاً وفرناً في محلة القطنين وقبوا وطاحوناً و١٣ دكاناً في سوق الزّيت و٢٢ حانوتاً في سوق الزّيت و٦ مخازن وصهريج كبير و١٦ قيراطاً من مزرعة حارة الإفرنج، وغرس زيتون تعرف بالتربة، وحكر خان الزّيت مع حكر قبان الزّيت، وقطعة أرض (المصرارة) ظاهر القدس منها ١٦ قيراطاً حصّة وقف البيمارستان.

(٤) وقف لمصالح المسجد الأقصى المبارك:

أوقف صلاح الدّين على مصالح المسجد الأقصى سوقاً لبيع الخضراوات، وسوقاً لبيع القماش.

(٥) كُتّاب تعليم القرآن الكريم:

أنشأ صلاح الدّين «كُتّاباً» لتعليم القرآن الكريم مقابل المسجد الأقصى، ووقف

سبل حماية الأصول الوقفية

عليه داراً للإنفاق عليه.

(١) المدرسة الخثنيّة:

أوقف صلاح الدّين المدرسة الخثنيّة على رجل من أهل التّقوى والصّلاح، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد الشّاشي، من بعده على من يحدو حذوه، وقد وقف على هذه المدرسة في القرن العاشر دار بخط القطّانين.

(٧) وقف مقبرة باب السّاهرة:

وكانت تُسمّى في السّابق «مقبرة المجاهدين»، ولا تزال لليوم مقبرة للمسلمين مع اندثار قسمها الشّرقي، وتعدّى اليهود على أراضٍ منها.

(٨) المدرسة الميمونيّة:

وقفت سنة ٥٩٣هـ، ومن أوقافها قرية بيت دجن الكائنة في جبل نابلس، وفي عام ١٨٩٢م جعلها الأتراك مدرسة إعدادية، وبعد الاحتلال البريطاني أصبحت مدرسة للبنات، وتوجد فيها الآن المدرسة القادسية وهي مدرسة ثانوية.

وهكذا أعاد النّاصر الفاتح صلاح الدّين الأيوبي الحياة إلى القدس بأن أوقف الأوقاف التي طالت كلّ مناحي الحياة؛ ليصرف من ريع الأوقاف على المسجد الأقصى وتسهيل شدّ الرّحال والمكوث في القدس، وتوفير الطّعام والشّراب والمأوى والتّعليم والطّابة لأهل القدس وما حولها.

أعاد الفاتح صلاح
الدّين الحياة إلى
القدس بأن أوقف
الأوقاف التي طالت
كلّ مناحي الحياة؛
ليصرف من ريع
الأوقاف على المسجد
الأقصى وتسهيل
شدّ الرّحال والمكوث
في القدس، وتوفير
الطّعام والشّراب
والمأوى والتّعليم
والطّابة لأهل
القدس وما حولها.

بيت المقدس أنموذجاً



وعادت الحياة إلى القدس سريعاً بعد أن غُيب عنها المسلمون ٩١ عاماً، وهي في ظلّ رماح الاحتلال الصليبي، وخلال أقل من سنة كانت القدس تُقصد ويُشدُّ إليها الرّحال ويُتقَرَّب إلى الله في مجاورة المسجد الأقصى، وبفضل الله تعالى ثم فقهه وحِكمة الناصر صلاح الدّين أُعيدت الحياة الاقتصادية للقدس، وبعودتها عاد النّبض لكلّ مناحي الحياة.

*** ومن الأوقاف في العهد العثماني :**

(١) تكيّة خاصكي سلطان :

وكانت تكيّة خاصكي سلطان في القدس (٩٥٩هـ - ١٥٥١م) التي خُصّصت لإطعام الفقراء والأسر المُتعفّفة^(٥١) في القدس، مثلاً لواجب إطعام الطعام لأهل الحاجة، وقد بلغ عدد القرى والمزارع الموقوفة على التكية ٣٤ قرية ومزرعة^(٥٢)، وما زالت إلى يومنا هذا تُقدّم الطّعام للأسر المعوزة .

(٢) الخطّ الحديدي الحجازي :

يُعدُّ الخطّ الحديدي الحجازي وقفاً إسلامياً، وهو من الإنجازات الرائعة والنادرة للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني من الناحية السياسية والدينية والحضارية؛ بل هو من أعظم الأوقاف المعاصرة؛ حيث قدّم هذا المشروع خدمات جليلة، ولاسيما لحجاج بيت الله الحرام، الذين تخلّصوا من رحلة الشقاء الطويلة التي كانت تمتدُّ لأكثر من شهر وسط المخاطر الكثيرة، إذ تقلّصت بعد إنشاء الخطّ إلى خمسة أيام فقط بما في ذلك فترات الاستراحة.

فبعد أن رأى السلطان عبد الحميد ما يعانيه الحُجّاج من مشاقٍّ في طريقهم إلى مكة المكرمة، عزم على مدّ خطّ حديديٍّ ليسير عليه عربات بخاريّة تحمل

يعدُّ الخطُّ الحديدي

الحجازي وقفا

إسلاميا، وهو من

الإجازات الرائعة

والنادرة للسلطان

العثماني عبد الحميد

الثاني من الناحية

السياسية والدينية

والحضارية؛ بل هو

من أعظم الأوقاف

المعاصرة

الحُجَّاج والمتاع، وتقيهم من متاعب السفر لأشهر في صحراء مقفرة، وشمس حارقة، وحصى ملتهبة، وأهوال لا يقدر عليها إلا الرجال الصَّناديد؛ خَصَّصَ لمدَّة من خزانة دولته أقصى ما تستطيع، ومن ماله الخاصَّ ما جادت به نفسه، ورغَّب المسلمين في المشاركة والتبرع لهذا المشروع الاستراتيجي.

ومثل هذا المشروع لا يكفيه ذلك، وأوقف له الأوقاف، وسخر الجيش العثماني للعمل في مدَّة، ووصف الشيخ على الطَّنطاوي - رحمه الله - في كتابه «ذكريات»، العناء الذي أصاب الجيش ما أدَّى إلى موت آلاف الجنود حتى قيل: «إِنَّ فِي كُلِّ مِائَةِ مِتر منه قبر شهيد».

شرع العمل في هذا المشروع العملاق سنة ١٩٠٠م، وامتدَّ العمل فيه ثماني سنوات متتالية؛ فأصبحت الرِّحلة بعد إنشاء هذا الخطِّ الحديدي الذي بلغ طوله (١٣٢٠ كم) تستغرق أيامًا معدودة ينعم فيها الرُّكَّاب بالرَّاحة والأمان، وعاش المسلمون في البلدان كافة حلم إنشاء الخطِّ الحجازي، وتخيَّل الكثيرون أن البعث والصَّحوة بين المسلمين اقترب زمانها، وتجلَّت هذه المشاعر الفياضة في حماسة العمل وسرعة إنجازه، وعندما وصل أول قطار إلى المدينة المنورة حاملاً الحُجَّاج انهمرت الدُّموع، وانهالت الدَّعوات للسلطان عبد الحميد.

وكان ممَّا أوقف لذلك الخط الحديدي أراض في حيفا، وعكَّا، والنَّاصرة، واستثمار مياه وادي اليرموك، وأراض ومبان في دمشق وبيروت، ومنها كذلك استثمار الفوسفات في الأردن، وفي كلِّ ذلك حُجج وقيَّة، ووثائق قضائيَّة.

بيت المقدس أنموذجاً



وبلغ إجمالي ما صُرف على الخط الحديدي أربعة ملايين ونصف المليون من الليرات الذهبية العثمانية، وقد سُجِّل الخطُّ وقفاً إسلامياً بعد أن لُوحتت الأطماع الاستعمارية في ذلك المشروع الرائد، ورُبط بوزارة الأوقاف العثمانية، وعُيِّنَ له إدارة مستقلة، وصدر بذلك القانون رقم ٤٨٨

عن مجلس النواب العثماني، ووصل أول قطار إلى المدينة المنورة في (٢٢ رجب ١٣٢٦هـ الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٠٨م)، وأقيم الاحتفال الرسمي لافتتاح الخط الحديدي، وقدّم الخط الحجازي خدمات جليلة لحجاج بيت الله الحرام؛ حيث استطاع حجاج الشام والأناضول قطع المسافة من دمشق إلى المدينة المنورة في خمسة أيام فقط بدلاً من أربعين يوماً، مع العلم أن الوقت الذي كان يستغرقه القطار هو (٧٢) ساعة فقط، أما بقية الأيام الخمسة فكانت تضيع في وقوف القطار في المحطات وتغيير القاطرات.

وكانت القطارات البخارية تنطلق من محطة قطار «حيدر باشا» بإسطنبول إلى دمشق، ومن دمشق إلى المدينة المنورة كان يُسمَّى خط الحجاز، فتحقّق الحلم الذي طالما انتظره المسلمون، وكان في خطة المشروع الحجازي أن يمتدّ بعد ذلك إلى مكة المكرمة، ومن هناك إلى جدة، بيد أن أيّاً من ذلك لم يتحقّق.

وساعد الخط الحجازي في نهضة تجارية واقتصادية لمدن الحجاز، وكافة المدن الواقعة على امتداد الخط، ومنها مدينة حيفا التي تحوّلت إلى ميناء ومدينة تجارية هامة، وكذلك المدينة المنورة.

كما ظهرت مجتمعات عمرانية نتيجة استقرار بعض القبائل والتجمّعات البدوية على جانبي الخط في بعض الجهات واشتغالهم بالزراعة.

واستمرّت سكة حديد الحجاز تعمل بين دمشق والمدينة المنورة ما يقرب من

الوقف الإسلامي
نظام يعدُّ أحد أهم
النظم التي أسهمت
في تحقيق المقاصد
العامة للشريعة
الإسلامية، لما فيه
من حفظ للضرورات
الخمس، في حفظ
الدين والنفس والمال.

تسع سنوات (١٩٠٨ - ١٩١٨ م) نقلت خلالها
التجار والحجَّاج، وعندما نشبت الحرب العالمية
الأولى ظهرت أهمية الخط وخطورته العسكرية على
بريطانيا؛ فعندما تراجعت القُوَّات العثمانية أمام
الحملات البريطانية، كان الخط الحجازي عاملاً
هاماً في ثبات العثمانيين في جنوبي فلسطين نحو
عامين في وجه القوات البريطانية المتفوّقة.

وعندما نشبت الثورة العربية واستولت على
معظم مدن الحجاز، لم تستطع هذه القُوَّات الثائرة
السيطرة على المدينة المنورة بسبب اتصالها بخط
السكة الحديدية ووصول الإمدادات إليها، واستطاعت حامية المدينة العثمانية
أن تستمر في المقاومة بعد انتهاء الحرب العالمية بشهرين؛ لذلك لجأ قادة الثورة
العربية تنفيذاً لمشورة ضابط الاستخبارات البريطاني «لورانس» إلى تخريب
الخط، ونسف جسوره، وانتزاع قضبانه في عدّة أجزاء منه.

وهذا الوقف عطّلته أيادي الاستعمار المعاصر؛ فكان لبريطانيا الدور الأكبر في
تعطيله والدفع لتوقّفه، وأضحى مأساة يشهد عليها التاريخ والواقع، وسكّته
الممدودة على الأرض كالجثّة الهامدة، لا هو حيٌّ فيرجى، ولا هو ميتٌ فيُنسى؛
يذكرنا بحاله وحالنا، ولسان حاله يقول: «هل من رجعة لربط العالم الإسلامي
بمدينة رسول الله ﷺ».

يقول الشيخ على الطنطاوي: «إن هذا الخط وقف إسلامي، وملك للمسلمين
جميعاً؛ لأنه أنشئ:

أولاً: بأموالهم كلّهم.

بيت المقدس أنموذجاً



ثانياً: لأنه يربط المسلمين بقبلتهم، وبمدينة نبيهم.

ثالثاً: لأنه كان مستقلاً مربوطاً بوزارة الأوقاف العثمانية.

رابعاً: لأن مؤتمر الصلح في لوزان أقر هذه الوقفية بعد دراسة قانونية عميقة.

خامساً: لأن الحكومات المتعاقبة في سوريا اعترفت كلها بهذه الوقفية.

سادساً: لأن المادة الأولى من اتفاقية ١٨/٤/١٩٤٧ م بين المملكة العربية السعودية وسوريا والأردن قد نصّت على أن هذا الخط وقف إسلامي، وتؤكد ذلك في البروتوكولين وملاحقهما المتفق عليها في مؤتمر الرياض في أول سنة ١٩٥٤ م.

الخاتمة :

تُعدّ الأوقاف إحدى الصّفحات النّاصعة في سجل دولة الإسلام الأولى في عهد النّبوة والخلفاء الرّاشدين وما بعدهم في العهود الإسلامية، لتنتج حضارية إسلامية، عملت على إيجاد واستمرار منظومة من المؤسّسات المتكاملة في كافّة الميادين الحيويّة للمجتمع من تعبدية وتعليمية وجهادية وصحية واجتماعية وغيرها، وتأمين مصادر الدّعم السّخي لها لضمان استمرارها.

كما تظهر أهمية الأوقاف ومخرجاتها باعتبارها إحدى الدعامات الكبرى للنّهوض ببيت المقدس وما حولها، حيث ارتبط كل وقف بحجة شرعية توضّح أركانه، والغرض منه، وحجمه، وكيفية الاستفادة من ريعه، ونوعية المستفيدين، وعدد الموظفين والخدم القائمين على رعاية شؤون المؤسسة، وغير ذلك من الجوانب التي توضّح الإطار العام لنظام الوقف (٥٣).

ومن أبرز ما يميّز مسيرة الوقف الإسلامي عبر العهود الإسلامية في بيت

عانت مدينة القدس
منذ النكبة في
سنة ١٩٤٨م من
مشكلات كبيرة،
أبرزها الاعتداءات
الإسرائيلية المتواصلة
على الأملاك الوقفية
للأراضي والعقارات
الكائنة داخل المدينة
القديمة وما حولها

المقدس: البقاء والاستمرار للمشاريع والمؤسسات دون أن تتوقّف عن أداء رسالتها عقب وفاة مؤسّسيها؛ وذلك بفضل الله تعالى، ثم بنظام الوقف الذي ازدهر مع ازدهار هذه الحضارة.

وبقي نظام الوقف في بيت المقدس وعموم العالم الإسلامي شديد الارتباط بمختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى جانب ارتباطه الوثيق بالجوانب الروحية والأخلاقية.

لذلك فالوقف الإسلامي نظام يُعدُّ أحد أهم النظم التي أسهمت في تحقيق المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، لما فيه من حفظ للضرورات الخمس،

وفي مقدماتها حفظ الدين للمسلمين، بإقامة المساجد، وحفظها، ورعايتها، وفي حفظ الهوية الإسلامية، ونشر العلم، وقامت من خلاله صروح علمية، ومكتبات ثقافية، ومراكز خدمية، ومؤسسات اجتماعية، ومشافي صحية علاجية، ودور ثقافية، ومنشآت عقارية، ومدن حضارية، وأراضي زراعية، شاهدة على عظم نظام الوقف، ومخرجاته على مدى العصور.

نسأل الله تعالى أن يعود هذا الوقف الإسلامي الثابت بصكوك شرعية وقضائية وقرارات دولية، لا بد أن يعود كما كان وقفاً للأمة يصل بين مدن بلاد الشام وأرض الحجاز، وأن تمتدّ خطوطه لتصل بين العالم العربي.





(١٢) التاريخ المعتر في أنباء من غير (٩٨/٢).

(١٣) انظر: النص الكامل لحجة وقف المدرسة التنكية (ص ٢٤-٢٧) إصدار جمعية الدراسات الوقفية.

(١٤) الأنس الجليل (٣٦/٢).

(١٥) الأنس الجليل (٢٢٨-٢٢٩/٢).

(١٦) الأنس الجليل (٨٠/٢).

(١٧) انظر: كنوز القدس (ص ٢٤٧) لمجموعة من المؤلفين، تنسيق: المهندس رائف نجم.

(١٨) الأنس الجليل (٤٢/٢).

(١٩) الأنس الجليل (٣٤/٢).

(٢٠) الأنس الجليل (٤٠٣/١).

(٢١) خطط الشام (١١٧/٦).

(٢٢) خطط الشام (٢٥٥/٥).

(٢٣) انظر: المسجد الأقصى والهيكل الثالث (ص ٤٨)، دراسة للباحثة منى مصطفى أحمد شعيب.

(٢٤) مجلة التاريخ العربي، عدد ٢، ١٩٩٧م، العمارة الإسلامية بفلسطين في العهد الأيوبي، (ص ٣٥-٦١).

الهوامش:

(١) البخاري (١١٩٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٨/١١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٢٧٠).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٣٦٦.

(٤) انظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص ١٧١).

(٥) انظر: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي (ص ٧٦)، لمحمد الخطيب.

(٦) أثر الوقف الإسلامي على التعليم في فلسطين من الفتح العمري إلى وقتنا المعاصر، محمد خصيب وحسام الدين عفانة، المجلة الأكاديمية العالمية للشريعة الإسلامية وعلومها، م ٣، ع ١، (ص ٩٤-١٢١).

(٧) القدس في العهد العثماني (ص ٣٧٣-٣٧٤).

(٨) القدس في العهد العثماني (ص ٣٧٤-٣٧٥).

(٩) القدس في العهد العثماني (ص ٣٧٥).

(١٠) القدس في العهد العثماني (ص ٣٧٥-٣٧٦).

(١١) انظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

(٢/٢٣٠)، (٢/٤٠٧)، وتاريخ ابن عساكر

(١٨/٦٢)، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان

(١٩/٤٨٩).

سبل حماية الأصول الوقفية

- (٢٥) انظر: القدس في العهد العثماني (ص ٣٧٩-٣٨٢).
- (٤٠) الأنس الجليل (٢/ ٣٦).
- (٤١) الأنس الجليل (٢/ ٤٢).
- (٢٦) سفر نامه (ص ٥٧).
- (٤٢) الأنس الجليل (٢/ ٣٧).
- (٢٧) الأنس الجليل (٢/ ٥٣).
- (٤٣) الأنس الجليل (٢/ ٤٣).
- (٢٨) انظر: القدس في العهد العثماني (ص ١٧٥-١٧٩).
- (٤٤) الأنس الجليل (٢/ ٨٩).
- (٤٥) خطط الشام (٦/ ١٤٩).
- (٢٩) سفر نامه (ص ٥٦).
- (٤٦) المسجد الأقصى والهيكل الثالث (ص ٤٨).
- (٣٠) انظر: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي (ص ١٧٨-١٧٩).
- (٤٧) الأنس الجليل (٢/ ٤٣).
- (٣١) الأنس الجليل (١/ ١٣٩).
- (٤٨) الأنس الجليل (٢/ ٤١).
- (٣٢) انظر: حجة وقف المدرسة التنكزية (ص ٤٤).
- (٤٩) الأنس الجليل (٢/ ٤٥-٤٦).
- (٥٠) الأنس الجليل (٢/ ٤٨).
- (٣٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ص ٢١٨).
- (٥١) هذه الوقفية التاريخية مازالت وإلى الآن وعلى مدى ٤٧٣ عاماً تقدم الطعام لأهل الحاجة.
- (٣٤) سنن ابن ماجه (٣٦٨٤).
- (٥٢) كارين أرمسترونج: القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد غاني (بيروت: ١٩٩٨م).
- (٣٥) انظر دراسة بعنوان: لمحة عن أسبلة القدس في البلدة القديمة، للدكتور يوسف سعيد النشأة، من إصدارات مؤسسة التعاون، (ص ١٨-٣٨).
- (٥٣) الأوقاف الفلسطينية في فلسطين في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣ هـ / ١٢٥٠-١٥١٧ م) دراسة وثائقية، الدكتور محمد عثمان الخطيب، ص ٥-٦.
- (٣٦) انظر: الأنس الجليل (٢/ ٥٠).
- (٣٧) انظر: الأنس الجليل (٢/ ١٤٦).
- (٣٨) الأنس الجليل (٢/ ٣٤).
- (٣٩) خطط الشام (٦/ ١٤٨).